الأمير وخدمه الخمسة

يُحْكَى أَنَّ أَمِيرَةً مِنَ الْأَمِيرَاتِ كَانَتْ عَلَى جَانِبٍ عَظِيمٍ مِنَ الْجَمَالِ، وَلَكِنَّ جَمَالَهَا كَانَ سَبَبًا فِي حُزْنِهَا الْكَبِيرِ، وَبُؤْسِهَا الدَّائِمِ. ذَلِكَ أَنَّ أُمَّهَا الْمَلِكَةَ كَانَتْ حَقُودًا تَكْرَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أَحَدٌ بِابْنَتِهَا. فَكُلَّمَا قَدِمَ إِلَيْهَا أَمِيرٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ أَوْ عَظِيمٌ مِنَ الْعُظَمَاءِ، كَانَتْ تَطْلُبُ مِنْهُ مَطَالِبَ مُسْتَحِيلَةً، فَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهَا أَمَرَتْ بِقَطْعِ رَأْسِهِ وَتَعْلِيقِهِ عَلَى بَابِ قَصْرِهَا. وَذَاتَ مَرَّةٍ خَرَجَتِ الْأَمِيرَةُ مَعَ حَاشِيَتِهَا لِتَتَنَزَّهَ فِي غَابَةٍ عَلَى حُدُودِ مَمْلَكَتِهَا، فَرَآهَا أَمِيرٌ مِنْ أُمَرَاءِ الْمَمْلَكَةِ الْمُجَاوِرَةِ، فَأَحَبَّهَا مِنْ أَوَّلِ نَظْرَةٍ. ثُمَّ سَأَلَ عَنْهَا بَعْضَ سُكَّانِ الْغَابَةِ، فَأَخْبَرُوهُ بِأَمْرِهَا، وَبِالْبَلَاءِ الَّذِي جَلَبَتْهُ أُمُّهَا عَلَى كَثِيرِينَ مِمَّنْ طَلَبُوا زَوَاجَهَا. وَلَكِنَّهُ بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ صَمَّمَ أَنْ يَذْهَبَ لِأُمِّهَا، وَيَطْلُبَ يَدَ الْأَمِيرَةِ مَهْمَا كَلَّفَهُ هَذَا الطَّلَبُ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي امْتَطَى جَوَادَهُ، وَسَارَ فِي الْغَابَةِ مُمِّمًا قَصْرَ الْمَلِكَةِ. وَفِي طَرِيقِهِ رَأَى مِنْ بُعْدٍ جِسْمًا ضَخْمًا مُنْطَرِحًا عَلَى الْأَرْضِ، فَظَنَّ أَنَّهُ حَيَوَانٌ مِنْ حَيَوَانِ الْغَابَةِ. فَذَهَبَ نَحْوَهُ، وَلَكِنَّهُ وَجَدَهُ رَجُلًا لَا حَيَوَانًا. وَدُهِشَ لِمَنْظَرِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرَ فِي حَيَاتِهِ إِنْسَانًا بِهَذِهِ الضَّخَامَةِ. فَنَادَاهُ، وَبِسُرْعَةٍ لَبَّى الرَّجُلُ النِّدَاءَ، وَقَامَ وَاقِفًا، وَأَتَى نَحْوَ الْأَمِيرِ قَائِلًا: «هَلْ تُرِيدُ خَادِمًا يَا سَيِّدِي؟»

فَقَالَ الْأَمِيرُ: «وَمَاذَا أَفْعَلُ بِهَذَا الْجِسْمِ الضَّخْمِ؟» فَقَالَ الرَّجُلُ: «وَمَاذَا يُهِمُّ سَيِّدِي ضَخَامَةُ جِسْمِي إِذَا كُنْتُ أَقُومُ بِوَاجِبَاتِي بِأَمَانَةٍ وَإِخْلَاصٍ؟» فَسُرَّ الْأَمِيرُ مِنْ هَذَا الْجَوَابِ، وَأَخَذَهُ لِسَاعَتِهِ، وَقَالَ: «تَعَالَ مَعِي إِذَنْ». وَلَمْ يَذْهَبَا بَعِيدًا، حَتَّى شَاهَدَ الْأَمِيرُ رَجُلًا أَلْقَى جِسْمَهُ عَلَى الْحَشَائِشِ، وَأُذُنُهُ لِصِقُ الْأَرْضِ. فَسَأَلَهُ الْأَمِيرُ عَمَّا يَفْعَلُ، فَقَالَ: «إِنِّي أَسْتَمِعُ لِمَا يَجْرِي وَيُقَالُ فِي الدُّنْيَا». فَقَالَ الْأَمِيرُ فِي نَفْسِهِ: «إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ رُبَّمَا يَنْفَعُنِي يَوْمًا مَا»، وَسَأَلَهُ قَائِلًا: «هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ فِي خِدْمَتِي؟» فَقَالَ الرَّجُلُ: «إِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ شَرَفًا كَبِيرًا لِي يَا مَوْلَايَ». فَقَالَ الْأَمِيرُ: «إِذَنْ فَاتْبَعْنِي». ثُمَّ سَارَ الثَّلَاثَةُ مَعًا. وَبَعْدَ قَلِيلٍ شَاهَدَ الْأَمِيرُ قَدَمَيْ آدَمِيٍّ، وَبَعْدَ مُدَّةٍ شَاهَدَ السَّاقَيْنِ، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ أُخْرَى وَصَلَ إِلَى الْجِذْعِ وَأَخِيرًا أَدْرَكَ رَأْسَ هَذَا الْإِنْسَانِ الْعَجِيبِ. فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا مُدْهِشٌ حَقًّا! وَهَذِهِ أُعْجُوبَةٌ مِنْ عَجَائِبِ اللهِ فِي أَرْضِهِ». فَأَجَابَ الرَّجُلُ قَائِلًا: «إِنَّ مَا رَأَيْتَ لَا يُعَدُّ شَيْئًا يَا سَيِّدِي، فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَهَبَنِي قُدْرَةً خَارِقَةً، إِذْ يُمْكِنُنِي أَنْ أَمُطَّ جِسْمِي كَمَا أَشَاءُ، فَأَبْلُغَ أَبْعَدَ الْمَسَافَاتِ إِذَا اقْتَضَى الْحَالُ». فَقَالَ الْأَمِيرُ: «تَعَالَ مَعِي فِي خِدْمَتِي إِذَنْ، فَرُبَّمَا تَنْفَعُنِي يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ». فَتَمْتَمَ الرَّجُلُ بِبَعْضِ كَلِمَاتٍ

لَمْ يَفْهَمْهَا الْأَمِيرُ ، وَفِي الْحَالِ صَارَ جِسْمُهُ طَبِيعِيًا مِثْلَ غَيْرِهِ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ . وَسَارَ فِي حَاشِيَةِ الْأَمِيرِ . وَبَعْدَ زَمَنٍ وَجِيزٍ مَرَّ الْأَمِيرُ وَحَاشِيَتُهُ عَلَى رَجُلٍ جَالِسٍ فِي الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ يَرْعَشُ ، وَيَشْكُو شِدَّةَ الْبَرْدِ . فَقَالَ الْأَمِيرُ : « هَلْ أَنْتَ مَرِيضٌ أَيُّهَا الرَّجُلُ ، حَتَّى تَرْعَشَ هٰكَذَا فِي هٰذَا الْحَرِّ الشَّدِيدِ ؟ » فَقَالَ الرَّجُلُ : « إِنَّ حَالِي مُدْهِشٌ حَقًّا يَا مَوْلَايَ ! فَالْحَرَارَةُ مَهْمَا اشْتَدَّتْ لَا تُدْفِئُنِي ، بَلْ تَبْعَثُ فِي جِسْمِي بُرُودَةً وَرَعْشًا ، وَالْبَرْدُ الْقَارِسُ يُحْمِلُنِي أَنْصَبُّ عَرَقًا ، وَغَالِبًا يُغْمَى عَلَيَّ مِنْ شِدَّةِ مَا أَشْعُرُ بِهِ مِنْ حَرٍّ » . فَقَالَ الْأَمِيرُ : « هٰذَا غَرِيبٌ حَقًّا ! إِذًا لَمْ تَكُنْ مَشْغُولًا بِعَمَلٍ آخَرَ ، فَتَعَالَ فِي خِدْمَتِي » . فَقَالَ الرَّجُلُ : « إِنِّي خَادِمٌ أَمِينٌ لِمَوْلَايَ » . وَسَارَ مَعَهُمْ وَبَعْدَ قَلِيلٍ رَأَى الْأَمِيرُ رَجُلًا وَاقِفًا عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ قَدَمَيْهِ ، يَنْظُرُ إِلَى الْأُفُقِ بِاهْتِمَامٍ . فَسَأَلَهُ : « إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَنْظُرُ أَيُّهَا الرَّجُلُ » ؟

فَأَجَابَ الرَّجُلُ قَائِلًا : « إِنِّي أُشَاهِدُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، يَا مَوْلَايَ ، فَعَيْنَايَ حَادَّتَانِ ، وَيُمْكِنُنِي أَنْ أَرَى الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ، وَيَسْتَطِيعُ نَظَرِي أَنْ يَخْتَرِقَ مَا أَمَامَهُ مِنْ حَوَاجِزَ ، فَإِذَا كُنْتَ تُرِيدُ خَادِمًا ، فَرُبَّمَا تَجِدُنِي نَافِعًا » . فَقَالَ الْأَمِيرُ : « هٰذَا حَسَنٌ ، إِذَنْ فَاتْبَعْنِي » .

وَسَارَ الْأَمِيرُ ، وَمَعَهُ هٰذِهِ الْمَجْمُوعَةُ الْغَرِيبَةُ مِنَ الْخَدَمِ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكَةِ . وَأَرْسَلَ يَطْلُبُ الْمُقَابَلَةَ ، فَأُدْخِلَ عِنْدَهَا فِي الْحَالِ . وَعِنْدَئِذٍ طَلَبَ يَدَ كَرِيمَتِهَا الْأَمِيرَةِ ، فَقَالَتْ : « إِنَّ مَنْ يَطْلُبُ زَوَاجَ الْأَمِيرَةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ جَدِيرًا بِهَا » . فَقَالَ : « وَمَاذَا تَطْلُبُ مِنِّي جَلَالَةُ الْمَلِكَةِ ، بُرْهَانًا عَلَى جَدَارَتِي » ؟ فَقَالَتْ : « أَطْلُبُ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ : الْأَوَّلُ أَنْ تُحْضِرَ لِي خَاتَمِي الَّذِي سَقَطَ مِنِّي فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ » . فَتَحَيَّرَ الْأَمِيرُ فِي ذٰلِكَ ، وَخَرَجَ إِلَى خَدَمِهِ مُضْطَرِبًا . فَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِالْأَمْرِ ، قَالَ الرَّجُلُ الْمَطَّاطُ : « إِنَّ

الأمير وخدمه الخمسة

إحضارَ الخاتَمِ أمرٌ سَهْلٌ، إذا عَرَفْتُ مَوْضِعَهُ بالضَّبْطِ».

فقالَ الرَّجُلُ الحادُّ البَصَرِ: «ها هُوَ الخاتَمُ! إنّي أراهُ بجانِبِ صَخْرَةٍ في قَعْرِ البَحْرِ، مُغَطّاةٍ بالحَشائِشِ البَحْرِيَّةِ الخَضْراءِ». فَمَدَّ المَطّاطُ نَفْسَهُ وأدْلَى يَدَهُ حَتّى وَصَلَتْ إلى تِلْكَ الصَّخْرَةِ، والْتَقَطَ الخاتَمَ. ففَرِحَ الأميرُ وعادَ بالخاتَمِ إلى المَلِكَةِ. فاغْتاظَتْ غَيْظًا شَديدًا، ولَكِنَّها تَظاهَرَتْ بالسُّرورِ، وقالَتْ: «أحْسَنْتَ، ولَكِنَّكَ لَنْ تَجِدَ المَطْلَبَ الثّانيَ سَهْلًا كَهٰذا. ففي تِلْكَ الزَّريبَةِ مِائَةُ بَقَرَةٍ سِمانٍ، يَجِبُ أنْ تَأْكُلَها كُلَّها قَبْلَ الظُّهْرِ». فقالَ: «هَلْ يُمْكِنُني أنْ أدْعُوَ ضَيْفًا يُشاطِرُني هٰذا الطَّعامَ؟» فقالَتِ المَلِكَةُ ضاحِكَةً: «لا مانِعَ أنْ تَدْعُوَ ضَيْفًا واحِدًا فَقَطْ». وهُنا تَرَكَها الأميرُ، وذَهَبَ يُخْبِرُ خَدَمَهُ. فَصاحَ الخادِمُ ذو الجِسْمِ الضَّخْمِ قائِلًا: «اتْرُكْ هٰذِهِ المُهِمَّةَ لي يا سَيِّدي، فَسَيَكُونُ هٰذا اليَوْمُ أسْعَدَ أيّامِ حَياتي». وعِنْدَما أتَى الظُّهْرُ لَمْ يَكُنْ باقِيًا مِنْ هٰذا الغِذاءِ النَّفيسِ غَيْرُ كُومَةٍ مِنَ العِظامِ. فَلَمّا شاهَدَتِ المَلِكَةُ هٰذا المَنْظَرَ المُفْزِعَ، ما تَمالَكَتْ أنْ أظْهَرَتْ غَيْظَها وحَنَقَها، ولَكِنَّها هَدَّأَتْ نَفْسَها، وقالَتْ: «أظُنُّ أنَّكَ سَتَجِدُ المَطْلَبَ الثّالِثَ عَسيرَ التَّنْفيذِ: فَعِنْدَ غُروبِ الشَّمْسِ سَأُحْضِرُ ابْنَتي إلى المَنْزِلِ المُخَصَّصِ لإقامَتِكَ، وأتْرُكُها في حِراسَتِكَ. وعَلَيْكَ أنْ تُحافِظَ عَلَيْها حَتّى أعُودَ إلَيْكَ عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ». فقالَ الأميرُ في نَفْسِهِ: «إنَّ هٰذا أمْرٌ بَسيطٌ. فَبِمُساعَدَةِ خَدَمي الخَمْسَةِ، لا أظُنُّ أنَّهُ يَتَعَذَّرُ عَلَيَّ حِراسَةُ الأميرَةِ، ومَنْعُها مِنَ الهَرَبِ». وعِنْدَ الغُروبِ تَمامًا حَضَرَتِ الأميرَةُ، فَرَحَّبَ بِها أحْسَنَ تَرْحيبٍ. ولَمّا خَرَجَتِ المَلِكَةُ صَفَّقَ بِيَدَيْهِ، فَقامَ خَدَمُهُ الخَمْسَةُ، في هُدُوءٍ وسُكُونٍ، بِتَوْزيعِ الحِراسَةِ عَلى أنْفُسِهِمْ. فَأمّا المَطّاطُ فَقَدْ مَدَّ طُولَهُ، ولَفَّ نَفْسَهُ حَوْلَ المَنْزِلِ مِنْ جَميعِ جِهاتِهِ، فَصارَ مِنَ المُحالِ أنْ يَتَمَكَّنَ أحَدٌ مِنَ الدُّخولِ فيهِ أوِ الخُروجِ مِنْهُ. وأمّا ذُو البَصَرِ الحادِّ فَقَدْ أخَذَ يَرْقُبُ حَرَكاتِ المَلِكَةِ أيْنَما حَلَّتْ. وكَذٰلِكَ الرَّجُلُ الحادُّ السَّمْعِ، فَقَدْ وَضَعَ أُذُنَهُ عَلَى الأرْضِ يَسْتَمِعُ لِأيَّةِ حَرَكَةٍ يُقْصَدُ مِنْها الاقْتِرابُ مِنَ المَنْزِلِ. أمّا الأميرُ فَقَدْ بَقِيَ يَرْقُبُ الأميرَةَ في حُجْرَةِ الجُلُوسِ، وهُوَ يَنْتَظِرُ حُكْمَ القَدَرِ بالرَّغْمِ مِنْ شِدَّةِ الحِراسَةِ والحَذَرِ.

وعِنْدَ ما دَقَّتِ السّاعَةُ الحادِيَةَ عَشْرَةَ، سَلَّطَتِ المَلِكَةُ العَجُوزُ سِحْرَها عَلَى المَنْزِلِ ومَنْ فيهِ فَناموا جَميعًا، واخْتَفَتِ الأميرَةُ. غَيْرَ أنَّ المَلِكَةَ، بالرَّغْمِ مِنْ مَكْرِها وذَكائِها، كانَتْ قَدْ نَسِيَتْ أنَّ سِحْرَها يَقِفُ مَفْعُولُهُ قَبْلَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ بِرُبْعِ ساعَةٍ. فَلَمّا جاءَ هٰذا المِيعادُ، اسْتَيْقَظَ الأميرُ وخَدَمُهُ، فَقامَ هُوَ مَذْعُورًا يَبْحَثُ عَنْ أميرَتِهِ الجَميلَةِ، وقالَ: «واحَسْرَتاهُ! لَقَدْ راحَتْ وراحَتْ مَعَها حَياتي!» فَرَدَّ خادِمُهُ الحادُّ السَّمْعِ قائِلًا: «لا تَخَفْ

يَاسَيِّدِي ، فَإِنِّي أَسْمَعُ صَوْتَ نَحِيبِهَا ، وَلَكِنَّهُ بَعِيدٌ » .

وَقَالَ ذُو الْبَصَرِ الْحَادِّ : « إِنِّي أَرَاهَا جَالِسَةً عَلَى بُعْدِ ثَلَاثِمِائَةِ مِيلٍ » . فَقَالَ الْمَطَّاطُ : « صِفْ لِي هَذِهِ الصَّخْرَةَ ، وَأَنَا آتِيكَ بِهَا بَعْدَ ثَلَاثِ دَقَائِقَ . »

وَعِنْدَ مَا دَقَّتِ السَّاعَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ ، حَضَرَتِ الْمَلِكَةُ . وَكَمْ كَانَ دَهَشُهَا عِنْدَ مَا رَأَتِ الْأَمِيرَةَ جَالِسَةً فِي حُجْرَةِ الْأَمِيرِ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ الَّذِي تَرَكَتْهَا فِيهِ عِنْدَ الْغُرُوبِ . وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَتْ لِلْأَمِيرِ : « خُذْهَا فَأَنْتَ جَدِيرٌ بِهَا » . وَكَانَ الْغَيْظُ قَدْ بَلَغَ مِنْ نَفْسِهَا مَبْلَغًا كَبِيرًا . فَقَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ هَمَسَتْ فِي أُذُنِ ابْنَتِهَا قَائِلَةً : « لَقَدِ اشْتَرَاكِ بِعَدَدٍ يَسِيرٍ مِنَ الْخَدَمِ ، وَلَيْسَ هَذَا مِمَّا يُشَرِّفُ مَخْلُوقًا » . وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُلَاحَظَةُ مُؤْلِمَةً جِدًّا لِنَفْسِ الْأَمِيرَةِ . فَالْتَفَتَتْ لِلْأَمِيرِ ، وَقَالَتْ : « لَقَدْ وَافَقْتُ أُمِّي عَلَى تَزَوُّجِكَ إِيَّايَ ، وَلَكِنِّي لَا أُوَافِقُ إِلَّا إِذَا رَضِيَ وَاحِدٌ مِنْ خَدَمِكَ أَنْ يَرْمِيَ نَفْسَهُ فِي نَارٍ وَقُودُهَا ثَلَاثُمِائَةِ كُتْلَةٍ مِنَ الْخَشَبِ ، لَا يَخْرُجُ مِنْهَا حَتَّى تَصِيرَ رَمَادًا » فَابْتَسَمَ الْأَمِيرُ لِخَدَمِهِ قَائِلًا : « هَلْ سَمِعْتُمْ ذَلِكَ ؟ وَهَلْ فِيكُمْ مَنْ يَرْضَى هَذَا الْعَذَابَ ؟ » فَأَجَابَهُ خَادِمُهُ الْبَارِدُ فِي الْحَرِّ الدَّفْآنُ فِي الْبَرْدِ قَائِلًا : « أَنَا فِدَاكَ يَا مَوْلَايَ » .

وَفِي الْحَالِ جَمَعَ خَدَمُ الْأَمِيرَةِ ثَلَاثَمِائَةِ كُتْلَةِ خَشَبٍ ، وَأَشْعَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، وَجَلَسَ فِي وَسَطِهَا الْخَادِمُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةً ، يَرْقُبُهُ النَّاسُ بِالْعَجَبِ وَالدَّهَشِ ، وَأَسْنَانُهُ تَصْطَكُّ ، وَجِسْمُهُ يَرْتَعِدُ مِنْ شِدَّةِ شُعُورِهِ بِالْبَرْدِ . وَعِنْدَ مَا خَمَدَتِ النَّارُ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْخَشَبِ غَيْرُ الرَّمَادِ ، خَرَجَ مِنْهَا ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ فِي حَيَاتِهِ بِالْبَرْدِ الْقَارِسِ ، كَمَا شَعَرَ بِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ .

وَقَدْ كَانَ سُرُورُ الْأَمِيرَةِ عَظِيمًا بِانْتِصَارِ أَمِيرِهَا الْجَمِيلِ انْتِصَارًا بَاهِرًا فِي كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ . وَلَمْ يَبْقَ سَبَبٌ لِلتَّأْخِيرِ فِي عَقْدِ الزَّوَاجِ . وَفِي الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ قَامَتْ مَعَالِمُ الْأَفْرَاحِ ، وَابْتَهَجَ الشَّعْبُ بِهَذَا الزَّوَاجِ السَّعِيدِ ، فَقَدْ كَانَتِ الْأَمِيرَةُ عَزِيزَةً مَحْبُوبَةً عِنْدَ الْجَمِيعِ ، وَقَدْ بَرْهَنَ الْأَمِيرُ عَلَى ذَكَاءٍ نَادِرٍ وَإِقْدَامٍ عَظِيمٍ ، حَتَّى صَارَ مَعْبُودَ الْجَمَاهِيرِ . ثُمَّ قَامَتِ الْأَفْرَاحُ مَرَّةً أُخْرَى فِي مَمْلَكَةِ الْأَمِيرِ . وَكَانَ أَشَدَّ الْجَمِيعِ فَرَحًا أَبُوهُ الْمَلِكُ ، وَأُمُّهُ الْمَلِكَةُ ، لِنَجَاتِهِ مِنْ مَكْرِ الْمَلِكَةِ الْعَجُوزِ ، وَقِرَانِهِ بِأَمِيرَةٍ بَارِعَةِ الْجَمَالِ ، حَمِيدَةِ الْخِصَالِ . وَعَاشَ الْجَمِيعُ فِي سُرُورٍ وَهَنَاءٍ . مُتَمَتِّعِينَ بِمَنْ أَنْجَبَهُمُ الْأَمِيرَانِ مِنْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ .